

الموسيقى الكبير للفارابي

بمقام
الدكتور محمود احمد الحفنى

أبو نصر الفارابي

٢٦٠ - ٣٣٠ هـ

اسمه أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي ،
نسبة إلى مدينة « فاراب » من أعمال خراسان ، حيث
ولد بها وكان أبوه تركياً من قواد الجيش .

فلما شب كان شأنه شأن أولئك العباقرة ذوى
المواهب الذين تهفو نفوسهم نحو المعرفة ويجدون في
الحكمة والعلوم غذاء لها ، فهاجر مسقط رأسه إلى بغداد
حيث كانت مهد الحضارة في العصر العباسي .

وكان ينطق بعدة لغات ويجيد اللسان التركي ،
فتعلم العربية وأتقنها غاية الاتقان حتى لم يكن يُعرف
بأيهما أبن ، ولما دخل بغداد كان بها أبو بشر متى بن
يونس الحكيم المشهور ، فأخذ عنه علم المنطق ثم رحل
إلى مدينة حرّان وكان بها يوحنا بن حيلان الحكيم
النصراني ، فأخذ عنه طرفاً من علم المنطق أيضاً ، ثم
عاد إلى بغداد وانقطع إلى قراءة كتب الفلسفة وتناول
جميع كتب « أرسطو » في المنطق ، وبرع في تفسير
معانيها وأغراضه فيها ، حتى قيل إن كتاب « النفس »

لأرسطو وجد مكتوباً عليه بخط الفارابي : « إني قرأت
هذا الكتاب مائة مرة » .

ثم أقبل على العلوم الرياضية وعلوم الحكمة والفلسفة
ونظر في صناعة الطب وعلم منها الأمور الكلية غير أنه
لم يباشر جزئياتها ولم يحاول مباشرة أعمالها ، وكان له
من معرفته باللغة اليونانية خير معين على استيعاب علوم
الحكمة والفلسفة والمنطق ، وكانت أيضاً معرفته باللغة
الفارسية مما جعله إماماً في العلوم النظرية والموسيقى ،
إلى جانب معرفته باللغة العربية ، وهى لغة الأدب والدين
والطب ، فكان فيلسوفاً عالماً حكيماً ، جديراً بأن يلقب
بالمعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين .

ومع كل هذا ، كان أبى النفس متواضعاً متجنباً
عن أمور الدنيا مقتنعاً منها بما يقوم بأوده يسير سيرة
المتقدمين من الفلاسفة ، فلما سئل مرة : من أعلم أنت
أو أرسطو؟ قال : « لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه » ،
وكان فاضلاً تقياً ورعاً ، وله دعاء خاص به ذكره
ابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ في كتابه : « عيون
الأنباء في طبقات الأطباء » ، هذا نصه :

قال : اللهم إني أسألك يا واجب الوجود وباعلة
العلل يا قديماً لم يزل أن تعصمني من الزلل ، وأن تجعل
لي من الأمل ما ترضاه لي من عمل ، اللهم امنحني
ما اجتمع من المناقب وارزقني في أموري حسن العواقب
تنجح مقاصدي والمطالب يا إله المشرق والمغرب رب
الجوار الكنس السبع التي انبجست عن الكون انبجاس
الأهر من القواعل عن مشيئته التي عمت فضائلها جميع
الجواهر ، اللهم البسني حلل البهاء وكرامات الأنبياء
وسعادة الأغنياء وعلوم الحكماء وخشوع الأنقياء ،
اللهم انقذني من عالم الشقاء والفناء واجعلني من إخوان
الصفاء وأصحاب الوفاء وسكان السماء مع الصديقين
والشهداء ، أنت الله الذي لا إله إلا أنت علة الأشياء
ونور الأرض والسماء ، امنحني فيضاً من العقل الفعال
يا ذا الجلال والأفضال ، هذب نفسي بأنوار الحكمة
وأوزعني شكر ما أوليتني به من نعمة ، أرني الحق
حقاً والهمني اتباعه والباطل باطلاً واحرمني اعتقاده
ولإسماعه ، هذب نفسي من طينة الهوى إنك أنت العلة
الأولى :

يا حلة الأشياء جمعاً والذي

كانت به عن فيضه المتفجر

رب السموات الطباق ومركز

في وسطهن من الثرى والأبحر

إني دعوتك مشجيراً مذنباً

فاغفر خطيئة مذنب ومقصر

هذب بفيض منك رب الكل من

كدر الطبيعة والعناصر عنصرى

اللهم رب الأشخاص العلوية والأجرام الفلكية
والأرواح السماوية ، غلبت على عبدك الشهوة البشرية
وحب الشهوات والدنيا الدنية فاجعل عصمتك مجتني
من التخليط وتقواك حصني من التفريط انك بكل
شيء محيط ، اللهم انقذني من أسر الطبائع الأربع وانقلني

إلى جنابك الأوسع وجوارك الأرفع ، اللهم اجعل
الكفافية سبباً لقطع مذموم العلائق التي بيني وبين الأجسام
الترابية والهموم الكونية واجعل الحكمة سبباً لإيجاد نفسي
بالعوالم الإلهية والأرواح السماوية ، اللهم طهر بروح
القدس الشريفة نفسي وآثر بالحكمة البالغة عقل وحسي
واجعل الملائكة بدلا من عالم الطبيعة أنسى ، اللهم
الهمني الهدى وثبت إيماني بالتقوى وبغض إلى نفسي
حب الدنيا ، اللهم قوّ ذاتي على قهر الشهوات الفانية
وألحق نفسي بمنازل النفوس الباقية واجعلها من جملة
الجواهر الشريفة الغالية في جنات عالية ، سبحانه
اللهم سابق الموجودات التي تنطق بالسنّة الحال والمقال
إنك المعطي كل شيء منها ما هو مستحقه بالحكمة
وجاعل الوجود فيها بالقياس إلى عدمها نعمة ورحمة ،
فالدوات فيها والأعراض مستحقة بآلائك شاكرة
فضائل نعمائك ، سبحانه اللهم وتعاليت ، إنك الله
الأحد المفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له
كفولاً أحد ، اللهم إنك قد سمحت نفسي في معن من
العناصر الأربعة ووكلت بافتراسها أسباعاً من الشهوات ،
اللهم جسّد لها بالعصمة ، وتعطف عليها بالرحمة التي
هي بك أليق والكرم الفاضل الذي هو منك أجدر
وأخلق ، وأمن عليها بالتوبة العائدة بها إلى علمها
السماوي ، وعجل لها بالأوبة إلى مقامها القدسي وأطلع
على ظلماتها شمساً من العقل الفعال وابسط عنها ظلمات
الجهل والضلال واجعل ما قواها بالقوة كامناً بالفعل
وأخرجها من ظلمات الجهل إلى نور الحكمة وضياء
العقل ، الله ولي الدين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى
النور ، اللهم أر نفسي صور الغيوب الصالحة في منامها
وبدلتها من الأضغاث برويا الخيرات والبشرى الصادقة
في أحلامها وطهرها من الأوساخ التي تأثرت بها عن
محسوساتها وأوهامها وابسط عنها كدر الطبيعة وأنزلها
في عالم النفوس المنزلة الرفيعة ، الله الذي هداني وكفاني
وآواني .

هذا الدعاء الطويل قد يكشف لنا جانب التقوى والإنسانية في نفس هذا الفيلسوف العظيم وينبئ عن روحه النبيلة الطاهرة ، التي تدعو الله أن يزداد علماً وهو من أكابر العلماء .

قال ابن أبي أصيبعة : « حدثني عمي رشيد الدين أبو الحسن علي بن خليفة رحمه الله ، أن الفارابي توفي عند سيف الدولة بن حمدان في رجب سنة ٣٣٩ هـ ، وكان أخذ الصناعة عن يوحنا بن حيلان ببغداد في أيام المقتدر ، وكان في زمانه أبو البشر متى بن يونس ، وكان أبين من أبي نصر وأبو نصر أحد ذهناً وأعذب كلاماً ، وتعلم أبو البشر متى من إبراهيم المروزي ، وتوفي أبو البشر في خلافة الرازي فيما سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٩ هـ ، وكان يوحنا بن حيلان وإبراهيم المروزي قد تعلموا جميعاً من رجل من أهل مرو . »

وقال القاضي ساعد بن أحمد بن ساعد في كتاب التعريف بطبقات الأمم ، « إن الفارابي أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر ، فبدأ جميع أهل الإسلام فيها وأربى عليهم في التحقيق بها فشرح غامضها وكشف سرها وهرب تناولها وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة منهية على ما أخفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس وأفاد وجوه الانتفاع بها وحرف طرق استعمالها وكيف تصرف صورة القياس في كل مادة منها فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة . »

وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقق بفنون الحكمة وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر وتعرف وجه الطلب اطلع فيه على أسرار العلوم ونمازها علماً علماً وبين كيف التدرج من بعضها إلى بعض شيئاً شيئاً ثم بدأ بفلسفة أفلاطون فعرف بغيره

منها وسمى تأليفه فيها ، ثم أتبع ذلك بفلسفة أرسطوطاليس فقدم له مقدمة جلية عرف فيها بتدرجه إلى فلسفته ثم بدأ بوصف أغراضه في تأليفه المنطقية والطبيعية كتاباً كتاباً ، حتى انتهى به القول في النسخة الواصلة إلينا إلى (أول العلم الإلهي والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه) ، ولا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منه ، فانه يعرف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم والمعاني المختصة بعلم علم منها ، ولا سبيل إلى فهم معاني (قاطيفوراس) وكيف هي الأوائل الموضوعات لجميع العلوم إلا منه .

ثم له بعد هذا في العلم الإلهي وفي العلم المدني كتابان لا نظير لهما أحدهما المعروف بالسياسة المدنية والآخر المعروف بالسيرة الفاضلة ، عرف فيها بجمل عظيمة من العلم الإلهي على مذهب أرسطوطاليس في مبادئ الستة الروحانية وكيف عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرف فيها بمراتب الإنسان وقواه النفسانية ، وفرق بين الوحي والفلسفة ، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة .

ثم له بعد ذلك كتاب شريف في احصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، لا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتمام به وتقديم النظر فيه .

وقد ظل « الفارابي » معظم أيامه ببغداد مكباً على الاشتغال بعلوم الفلسفة والمنطق ، ووضع بها معظم كتبه وتصانيفه ، ثم سافر إلى دمشق ، ثم إلى مصر ، وقد ذكر في كتابه المرسوم بالسياسة المدنية ، أنه بدأ بتأليفه في بغداد وأكمله بمصر ، ثم عاد إلى دمشق وأقام عند سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان التغلبي ، وأكرمه إكراماً كثيراً وعظمت منزلته عنده وكان موثقاً له .

قال ابن أبي أصيبعة : « نقلت من كلام لأبي

كتاب المقائيس .
 كتاب مختصر الفلسفة .
 وكلام في معنى الفلسفة .
 كتاب في المدخل إلى الهندسة الوهية .
 وكلام في الشعر والقوافي .
 وكلام في حركة الفلك .
 مقالة في صناعة الكيمياء .
 وكلام في الجوهر .
 كتاب في الرد على جالينوس فيما تأوله من كلام
 أرسطو .
 كتاب في الرد على الرازي في العلم الإلهي .
 كتاب في إحصاء العلوم وترتيبها .
 كتاب المدينة الفاضلة ، والمدينة الجاهلة ، والمدينة
 الفاسقة ، والمدينة المبتدلة ، والمدينة الضالة .
 ومن مؤلفات الفارابي في صناعة الموسيقى :
 كتاب الموسيقى الكبير ، ألفه للوزير أبي جعفر
 المنصور محمد بن القاسم الكرخي .
 كتاب في إحصاء الإيقاع .
 كتاب في النقلة مضافاً إلى الإيقاع .
 وكلام في الموسيقى .
 وأما الكتب التي طبعت أو ترجمت من كتب
 الفارابي ، فهي :
 « آثار أهل المدينة الفاضلة » ، عني به « ديتريش »
 الألماني وطبع بليدن سنة ١٨٩٥ م ، وطبع بمصر
 سنة ١٣٢٤ هـ .
 « الرسالة الفارابية » وتليها مقدمة وملاحظات باللغة
 الألمانية ، عني بها « ديتريش » وطبع بليدن سنة ١٨٩٠ م
 « كتاب المجموع » ، طبع بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .
 « مبادئ الفلسفة القديمة » ، طبع بمصر سنة ١٣٢٨ هـ .
 « كتاب الموسيقى الكبير » ، طبع منه تيدة بعناية
 الأستاذ « لاند » ، في أعمال المؤتمر الشرقي السادس

قصر الفارابي ، في معنى اسم الفلسفة ، قال : اسم
 الفلسفة يوناني ، وهو دخيل على العربية ، ومعناه إيثار
 الحكمة ، وهو في لسانهم مركب من « فيلا » ومعناها
 الإيثار ومن « سوفيا » ومعناها الحكمة ، والفيلسوف هو
 المؤثر للحكمة ، والمؤثر للحكمة عندهم هو الذي يعمل
 المؤكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة .
 وللفارابي ، مؤلفات عديدة أكثرها في المنطق ،
 شرح فيها جميع كتب أرسطو ، وهي :
 كتاب القياس ، ويسمى أنالوطيقا الأولى .
 كتاب البرهان ويسمى أنالوطيقا الثانية .
 كتاب الجدل .
 كتاب العبارة .
 كتاب المقولات العشرة .
 كتاب المغالطة .
 كتاب الخطابة .
 كتاب السماع الطبيعي .
 كتاب السماء والعالم .
 كتاب الآثار العلوية .
 وله شرح كتاب « المحسنى » في علم الهيئة
 لبطليموس الفلكي ، وشرح كتاب « أيساغوجي »
 لفرغوريوس في المنطق ، وشرح المقاتلين الأولى والخامسة
 من كتاب إقليدس في الهندسة ، وجوامع كتاب
 النواميس لأفلاطون .
 وله أيضاً كتب كثيرة في المنطق والفلسفة والعلوم
 الطبيعية نذكر منها :
 كتاب المختص في المنطق .
 كتاب الألفاظ والحروف .
 كتاب السياسة المدنية .
 كتاب الخطابة ، وهو عشرون مجلداً .
 كتاب المدخل إلى علم المنطق .

بليدن سنة ١٨٨٤ م ، وترجم الكتاب بأكمله إلى اللغة الفرنسية بعناية البارون « دى ارلنجيه » في جزئين ظهر أولهما سنة ١٩٣٠ قبل وفاته بتونس سنة ١٩٣٢ ، وظهر الجزء الثاني سنة ١٩٣٥ بعد وفاته .

كتاب « إحصاء العاوم » ، عني به المستشرق دكتور « هنرى فارمر » ، وعلق عليه وطبع منه الجزء الخاص بعلم الموسيقى في ليدن سنة ١٩٣٥ م ؛ وكذلك عني بنشره الدكتور عثمان أمين .

وأكثر الكتب التي ألفها الفارابي ، إما أنها فقدت أو أنها لا تزال في الخزائن والمكتبات ، والمعروف منها إلى الآن قليل ، إذا قيس بمجموع ما كتبه في شتى العلوم والفنون .

ولم يبق من كتب الفارابي في صناعة الموسيقى سوى كتاب واحد ، هو المسمى « كتاب الموسيقى الكبير » ، الذي يعد بحق أعظم مؤلف في علم الموسيقى وضعه العرب منذ فجر الإسلام إلى وقتنا هذا .

وعلى الرغم من شهرة الفارابي في الفلاسفة والمثقفين والعاوم إلا أن شهرته اقتربت أكثر بصناعة الموسيقى والعلم بها ، ولعل هذه الشهرة التي تميز بها هذا الفيلسوف في الموسيقى ، وعلى الأخص في الأوساط التي تنتمي هذه الصناعة ، قد ترجع إلى كتابه الذي اشتهر باسم « كتاب الموسيقى الكبير » ، فقد حكى الناس عنه أساطير اقترنت بأنه أول من اخترع العود ، وأنه اخترع آلة كان إذا حرك أوتارها بطرائق معلومة عنده أحدثت نغماً قد يبعث على النوم تارة وعلى البكاء تارة أخرى ، أو نغماً لا يتمالك الإنسان عند سماعه من انضحك .

ولعل الذين أشاعوا عنه هذه الطرائف ربما نظروا في كتابه هذا ، عن آلة قديمة وصفها « الفارابي » بأنها مستطيلة الشكل توضع عليها مسطرة مقسمة لقياس

الأبعاد الصوتية في أجناسها المختلفة ، ونحن لم نجد ما يدعونا إلى تصديق هذه الروايات عنه .

غير أن الذي لا شك فيه أن « الفارابي » ، كان يزاوّل هذه الصناعة بالفعل ، فكان ذلك أمكن له في تعريف مبادئ هذا العلم والإحاطة بجميع نواحيه ، فكان يتنقل في موضوعاته انتقال خبير عالم بالصناعة العملية فجاء كتابه في علم الموسيقى شاملاً كاملاً .

وذكر ابن جليل في تاريخ الأطباء أن أبا نصر الفارابي كان في شببته يضرب بالعود ويغني ، فلما اتحنى وأجهه قال : « كل غناء يخرج من بين شارب والحية لا يستظرف ، فزرع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها ، فبلغ من معرفة غوارها الغاية واعتقد الصحيح منها وعلل السقيم منها ، وألف في الطب كتباً كثيرة » . وقال ابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ :

« نقلت من خط بعض المشايخ أن أبا نصر الفارابي صنع آلة غربية يسمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات ، ويذكر أن سبب قراءته الحكمة أن رجلاً أودع عنده جملة من كتب أرسطوطاليس ، فاتفق أن نظر فيها فوافقت منه قبولاً وتحرك إلى قراءتها ولم يزل إلى أن أتقن فهمها وصار فيلسوفاً بالحقيقة ، وقال ، إن أبا نصر سافر إلى مصر سنة ٣٣٨ هـ ورجع إلى دمشق وتوفى بها في رجب سنة ٣٣٩ هـ ، عند سيف الدولة علي بن حمدان في خلافة الراضي ، وصلى عليه سيف الدولة في خمسة عشر رجلاً من خاصته ، ويذكر أنه لم يكن يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيها محتاجة من ضروري عيشه ، ولم يكن معتنياً بهيئة ولا منزل ولا مكسب ، ويذكر أنه كان في أول أمره قاضياً فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك وأقبل بكلية على تعلمها ، ولم يسكن إلى نحو من أمر الدنيا البتة ، ويذكر أنه كان

يخرج إلى الحراس بالليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرؤه ، وكان في علم صناعة الموسيقى وعملها قد وصل إلى غاياتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه .

وإذ نحن تطرقنا في حياة هذا الفيلسوف العظيم إلى الجانب الذي اشتهر به أكثر الأمر في صناعة الموسيقى ، وإلى ذكر كتابه في هذه الصناعة ، الذي أحدث له هذه الشهرة البالغة رغم تفوقه في العلوم والفلسفة ، فلندكر طرفاً عن هذا الكتاب : « كتاب الموسيقى الكبير » للفارابي :

يعد هذا الكتاب من شوامخ الكتب العربية في الموسيقى ، لم يسبقه إليه أحد قبله ولم يزد عليه من تأخر من العرب القدماء ، فقد جاء هذا المؤلف شاملاً مستوفياً لجميع أنحاء الصناعة النظرية والعملية ، وهو مخطوط ضخمة له شهرة عالمية في الأوساط التي تعنى بدراسة الموسيقى العربية نظراً لغزارة مادته وقوة أسلوبه والمذهب المنفرد الذي سلكه المؤلف في تصنيفه .

وقد ظل هذا المخطوط في عداد المخطوطات القديمة إلى وقتنا هذا بسبب ضخامته وعمق معانيه وتعذر قراءته وعدم توافر النسخ الكاملة منه في المكتبات العامة ، وأيضاً بسبب أن القيام بتحقيقه على الأصول فقط قد يكون مجهوداً كبيراً قليل الفائدة ، ما لم يشرح غوامض القول فيه الأمر الذي يستلزم خبرة بمثل هذه البحوث بصفة خاصة مع دراية بالصناعة العملية ، فضلاً عن أنه يتطلب تفرغاً تاماً وقتاً طويلاً ، ولهذا الأسباب مجتمعة اقتصر المهتمون بهذا المؤلف إلى الرجوع إليه عند الحاجة أو إلى اقتباس مقتطفات منه في المواضيع المناسبة لهم .

غير أن عناية وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة في نشر وإحياء التراث العربي في سائر العلوم والفنون والآداب ، كانت ذا أثر واضح في اقبال المتخصصين على دراسة مختلف المخطوطات العربية وتحقيقتها وشرحها والتعليق عليها ، فكان لإخراج

كتاب « الموسيقى الكبير » دليلاً واضحاً على تلك العناية القصوى .

وقد أتم تحقيق هذا المخطوط الضخم مع شرحه والتعليق عليه الأستاذ « غطاس عبد الملك خشبة » العضو الفني بمعهد الموسيقى العربية بالقاهرة ، وراجعته وقام بتصديده كاتب هذه السطور ، وهو تحت الطبع بعناية وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

والناظر في هذا الكتاب يلمح فيه أنه كان ملحقاً به كتاب آخر ، وهذا واضح من قول المؤلف في افتتاح الكتاب : « ... رأينا أن نجعل ما نؤلفه في كتابين ، أولهما ، افتتاحناه بالأمور النافعة في الوقوف على مبادئ هذا العلم وأردفناه بالأشياء التابعة لأوائل هذه الصناعة واستوفينا فيه أجزاءها على التمام وسلكنا فيه المسلك الذي نخصنا نحن من غير أن نخلط به مذهباً آخر سواه ، والكتاب الثاني أثبتنا فيه ما تأدى إلينا من آراء المشهورين من الناظرين في هذه الصناعة وشرحنا ما غمض من أقاويلهم وفحصنا فيه رأى واحد واحد ممن عرفنا له رأياً أثبتته في كتاب ، وبيّنا مقدار ما بلغه كل واحد من أولئك في تحصيل ما في هذا العلم وأصلحنا الخلل على من وقع في رأيه منهم ... » .

غير أنه من المؤسف حقاً أن هذا الكتاب الثاني الذي أشار إليه المؤلف في مقدمة كتابه الأول ، لم يعثر عليه والأرجح أنه مفقود ، وربما يكون عند بعض الناس في المكتبات الخاصة ، ولذلك تناول التحقيق الكتاب الأول بجزئيه .

والكتاب الأول ، يشتمل على جزئين :

جزء في المدخل إلى صناعة الموسيقى ، والثاني في الصناعة نفسها .

والقسم الذي في المدخل إلى الصناعة مقالتان ، والقسم الذي في الصناعة نفسها ، فقد قسمه المؤلف ثلاثة فنون كل منها في مقالتين .

فتكلم أولاً ، عن الألحان التي يمكن أن تعد طبيعية للإنسان ، ويعنى بها الألحان التي عند الأمم الذين مساكنهم وعيشهم على المجرى الطبيعي للإنسان ، وقد جعل الألحان التي تعد غير طبيعية ، هي التي عند الأمم الذين مساكنهم وعيشهم فيما يلي خط عرض ٤٥° جنوباً ، وفيما يلي خط عرض ١٥° شمالاً ، فهؤلاء ليست ألحانهم طبيعية بوجه ما للإنسان .

وقال عن مناسبات النغم في الألحان ، إن الألحان تلتزم عن صفتين من النغم : أحدهما بمنزلة السدى واللحمة في الثياب ، والآخر بمنزلة الزاويق والاستظهارات ، فالتى هي بمنزلة السدى واللحمة في الثياب هي التي بمثابة الأصول والمبادئ في الألحان ، والتي هي بمنزلة الزاويق والاستظهارات هي النغم التي في ترتيبات الألحان لتكون كلمات للحس .

وقال : « وإذا تأملنا الألحان تأملاً كثيراً وجدنا فيها اقترانات للنغم وترتيبات لها ، وأعني بالاقترانات اجتماع اثنين منها أو أكثر ، والترتيبات أن يقدم هذا في السمع أو يؤخر هذا ، وفي الاقترانات ما هي كلمات وطبيعية للإسماع ومنها ما ليس كذلك ، وفي ترتيباتها ما هي كلمات أيضاً وطبيعية ومنها ما ليس كذلك .

وكلمات الإقتران والترتيب تتصور بطريق المناسبة فان كمال المقترنات في الإقتران هو مثل ما يعرض للونى الخمر والزجاج إذا اقترنا ، وكلون الياقوت والذهب إذا اقترنا ، واللازوردى والحمرة إذا اقترنا ، فلنسم كمال الإقتران اتفاق النغم وتأخيها ، وخلافه ، تنافر النغم وتباينها ، وكمال الترتيب يتبين أيضاً في ألوان الزاويق وفي الطعوم الواردة على الحس أولاً فأولاً ، وخلافه كذلك ، ولنسم ذلك ملاعبة الترتيب ، وخلافه منافرة الترتيب . . . »

ثم ذكر المؤلف مراتب النغم الطبيعية ، ووصف آلة قديمة ، تسمى « الشاهروود » ، وكانت بعيدة

أما المقالة الأولى من الجزء الأول في المدخل ، فهي بحث في أصل صناعة الموسيقى ، تناول فيه أولاً هيئات الصناعة في الإنسان ، فجعلها صفتين إحداهما الهيئة النظرية ، والثانية الهيئة العملية ، وهذه فقد قسمها إلى قسمين ، هيئة الأداء وهيئة الصيغة ، ثم قارن بينهما أيهما رئيسة الأخرى ، وقد انتهى به القول على أن هيئة الصيغة رئيسة هيئة الأداء .

ثم تناول أصناف الألحان وغاياتها ، وهذه جعلها ثلاثة أصناف :

الألحان الملدة ، وهي التي تكسب النفس لذة وأنى مسموع ، دون أن يكون لها صنع آخر ، في النفس .

الألحان الخيالة ، وهي التي تفيد النفس مع ذلك تخيلات وتوقع فيها تصورات أشياء وحالها في ذلك حال الزاويق والتماثيل المحسوسة بالبصر .

الألحان الانفعالية ، وهي التي تحدث عن الانفعالات فهي إما مزيدة لها أو منقصة منها .

ثم تطرق المؤلف إلى نشأة الألحان الغنائية في الإنسان وهي غريزة طبيعية في طلب اللذة أو التخيل أو الانفعال ، وهذه هي غايات الألحان .

ثم تكلم عن نشأة الآلات الموسيقية ، فقال إن الإنسان صنعها لتكون الألحان بالأقاويل ذات المعاني أسمى وألذ مسموعاً .

وفي نهاية هذه المقالة عرّف هيئة العالم بالموسيقى النظرية ، وهي أنه ليس يطلب دائماً أن يكون صاحب العلم النظرى على دراية بالموسيقى العملية ، فقد قال أرسطو في هذا المعنى ، إن كثيراً ممن يتعاطى النظر في الكليات لا يحس بالجزئيات ، لأن ذلك إنما يحتاج فيه إلى قوة أخرى غير قوة العلم بالكليات .

أما المقالة الثانية ، من المدخل ، فهي بحث واف لمبادئ العلم بالصناعة .

الفن الثاني : في الآلات المشهورة والنغم المحسوسة
منها وطرائق تسويات أوتارها .
الفن الثالث : في تأليف الألحان الجزئية .
أما المقالة الأولى من الفن الأول :

فقد بدأها أولا بذكر كيفية حدوث الصوت
والنغم في الأجسام وأسباب الحدة والثقل ، ثم عرف
مقادير الأبعاد الحادثة بقسمة الوتر والجمع بين الأبعاد
وتفصيلها وقسمتها ، وتعرض للقول في أى حدتي
النسبة مقابلا للنغمة الأثقل وأيهما مقابلا للنغمة الأحدث ،
ثم خرج بقوله إنه يرى أن الصناعة ليس يدخلها نقص
ولا يلحق السامع كبير مضرة من أن يستعمل الإنسان
في التعليم أعظم العددين في البعد لأيهما شاء من نعمتيه ،
غير أنه استعمل في كتابه هذا الأعداد العظمى مقابلة
للنغمة الأثقل ، من قبل أن التعليم بهذا الوجه كان
أسهل وأفضل .

وقول المؤلف هذا لا يقطع برأى ، غير أن
المفروض أن النغمة الأثقل أصل للنغمة الأحدث ، فواضح
أن العدد الأصغر في النسبة دالا على النغمة الأثقل
وبالعكس .

ونختم هذه المقالة بكلام مفصل في أصناف الأجناس
التي متوالياتها بالأربع نغم ، فجعلها رتبتين ، أجناس
قوية وأخرى لينة ، فالقوية ما كان فيها أعظم الأبعاد
الثلاثة أصغر نسبة من مجموع البعدين الأصغرين ،
واللينة ما كان فيها أعظم الأبعاد الثلاثة أكبر نسبة من
مجموع البعدين الآخرين ، ثم رتب أنواع الجنس إلى
منتظم متتالي ، ومنتظم غير متتالي ، وغير منتظم ، ثم بين
كيف تؤخذ الأبعاد في كل من هذه الأجناس ورتبها
في جداول .

أما المقالة الثانية من الفن الأول :

فقد تكلم فيها أولا عن تعريف الجماعات التي
تألف من أكثر من جنس واحد ، وكيفية ترتيب

المذهب إلى قوة الرابعة من النغمة الأثقل فيها ، وتكلم
عن المتجانسات من النغم ومناسباتها العددية ونظائرها
التي توجد لها بالوجه غير الطبيعي وهو المذهب النظري
المجمل في تعريف مقادير النغم والأبعاد الصوتية .
واختتم الجزء الأول في المدخل بذكر الملازمات
العشرة في الصناعة العملية ، وهي :

١ - الملازمة التي في تزييدات الألحان وتشبيعاتها :
٢ - الملازمة التي في أزمنة ما بين النغم ذى الإيقاع .
٣ - الملازمة التي في المتجانسات ، وهي نغم
الجماعة المعدة لأن يؤخذ منها اللحن .

٤ - الملازمة التي في التناوع ، وهو الانتقال من
نوع إلى الأقرب ثم الأقرب .

٥ - الملازمة التي في ترتيبات النغم ، وهو التقديم
والتأخير بينهما عند اجتماعهما لتكميل اللحن .

٦ - الملازمة التي في اقترانات النغم ، وهي التي
تعرف بالاتفاقات .

٧ - الملازمة التي في تهئية نغم الجماعة توطئة لما يستجد
منها أولا فأولا .

٨ - الملازمة التي في ترتيب أبعاد المتجانسات التي
بالأربع نغم ، وهي المسماة بالأجناس .

٩ - الملازمة التي في المطابقات ، وهي الانتقال
بالصوت في طبقات ملائمة .

١٠ - الملازمة التي في النغم ذواتها من حيث هي
طبيعية في الحدة والثقل .

ثم ذكر كيف تتركب الأبعاد بعضها إلى بعضها ،
وكيف يفصل بعضها عن بعض ، وكيف تناسب
بأعدادها البسيطة الدالة على نغمها .

أما الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فقد قسمه
المؤلف إلى ثلاثة فنون ، كل منها في مقالتين .

الفن الأول : الأصول في صناعة الموسيقى ،
ويسميه كتاب « الاسطقيسات » .

أطراف الأجناس بين حدى الجمع ، وقسم المجموع
صنفين منفصل ومتصل ، وهذه منها جماعات تامة
وجماعات ناقصة ، وجماعات متغيرة أو غير متغيرة .

ثم بين أسماء النغم اللاحقة في ترتيب المجموع ،
وذكر الأسماء اليونانية القديمة التي كانت تقابلها ، ثم
حرف التشابه في الأبعاد ، ويعنى بالأبعاد المتشابهة
الأبعاد التي نسبها متساوية وأطرافها على نسب متولفة ،
حتى إذا سمعت متواليه كانت ملائمة ، ثم ذكر أصناف
التوزيع والخلط بين النغم والأبعاد والأجناس والجماعات
واستوفاهما جميعاً ، وانتقل بعد ذلك إلى تعريف
أصناف الانتقالات الجزئية ، وهذه منها :

انتقالات على الاستقامة ، وهي نقلة مستقيمة على
التوالى .

انتقالات بعطف إلى المبدأ ، وهي نقلة مستقيمة ثم
عود إلى المبدأ بتوسط نغم انتقل عليها أو لم ينتقل .

انتقالات على استدارة ، وهي العود إلى المبدأ ،
ثم المصير منه إلى النوع النظير من الجانب الآخر .

انتقالات بانعراج ، وهي العود إلى غير المبدأ ،
من النغم التي انتقل عليها أو لم ينتقل .

ثم تكلم عن أصناف الأزمنة في الإيقاع ، وبين
الأجناس الأصول التي منها تؤخذ الإيقاعات ، فقسمها
إلى قسمين : موصل الإيقاع ، ومفصل ، فالإيقاع
الموصل ، هو المتوالى بأزمنة متساوية ويسميه الهزج ،
والمفصل من الإيقاع هو ما تتفاضل فيه الأزمنة .

ثم ختم المقالة الثانية بقول مجمل في الإيقاع ، وذكر
وصف آلة قديمة مستطيلة الشكل قريبة الشبه من
«السنطير» ، عليها مسطرة مقسمة متحركة يمكن
بواسطة استخراج جميع النغم التي يمكن أن تحدث من
جميع الأجناس المختلفة الأبعاد .

أما الفن الثاني ، فهو كتاب في الآلات المشهورة .

فالمقالة الأولى منه ، بدأ فيها أولاً بذكر آلة العود ،
وذكر الجمع المستعمل في هذه الآلة ، والدساتين التي
كانت تحت مواضع النغم فيها ، والتسوية المشهورة
لأوتارها ، وتسويات أخرى لم تجربها العادة .

ثم تكلم عن الأعراض التي تلحق اتفاقات النغم في
الأجسام والآلات ، ومنها ما يعرف في علم الصوت
بالتردد الاضطرابي ، وبين كيف أن بعض النغم التي
هي في ذاتها متفقة قد تسمع في بعض الآلات غير
متفقة ، أو بالعكس ، وكيف أن حاسة السمع قد
يختلط عليها أمر الاتفاقات ، متى فاجأته نغمة حادة ثم
تليها أخرى تبلغ من الثقل أقصاه ، فلا يحس بها ، أو
إذا فاجأته نغمة ثقيلة ثم تليها أخرى تبلغ من الحدة
أقصاها ولما يتمكن بعد من الأولى فلا يحس بها .

ثم ذكر كيف يبلغ في آلة العود تمام الجمع ، فزاد
فيه وترأ خامساً كان يسميه «الحاد» ، فإذا سويت
هذه الآلة تسوية طبيعية بأن يكون بين كل وترين بعد
بأربع نغمات تحده النسبة ٣ إلى ٤ فان النغمة التي تسمع
من دستان بنصر العود هي تمام الجمع الكامل ببعدين
بالكل ، أحدهما من مطلق الوتر الأثقل صوتاً إلى
سبابة الوتر الثالث ، والثاني من سبابة الوتر الثالث إلى
بنصر الوتر الخامس .

والمقالة الثانية من هذا الفن ، فقد جعلها في القول
على آلة الطنبور وأصناف المزامير وآلة الرباب ،
والمعازف التي تسمع منها الأوتار مطلقة .

بدأ في هذه المقالة بذكر صنفين من الطنبور
أحدهما الطنبور البغدادى ، والآخر يعرف بالطنبور
الخراسانى ، وهذا أعظم هيئة وأكثر كمالات الأول .
وذكر أن الأول من هذين كانت تستعمل فيه الدساتين
التي كانت تسمع في القديم منذ الجاهلية ، وهي كانت
ترتب فيها الأبعاد ترتيباً متساوياً المسافات ، وصحح

مواقع اللسانين وذكر استعمال المحدثين لهذه الآلة في ذلك الوقت .

ثم تلا هذا بالطنبور الخراساني ، فذكر النغم المستعملة فيه ، الراتبة منها والمتبدلة ، وبين كيفية استخراجها في هذه الآلة ، وعدد تسوياتها المشهورة وغير المشهورة ، والنغم الموجودة في كل تسوية ، مع ما يقابلها من النغم الموجودة في آلة العود .

وانتقل بعد ذلك إلى القول عن أصناف المزامير ، وكيفية حدوث النغم فيها ومناسبتها مع أطوال المزامير وأقطارها وثقوبها .

وقد تبين من قوله ، إن المزمار البلدي أو التركي المعروف في وقتنا هذا يشبه المزمار الذي كان يسمى قديماً بالسرناي ، أو هو على وجه التحديد .

ثم تكلم عن آلة الرباب ، وبين أماكن النغم فيها ونسبها وتسويات تلك الآلة ، ومناسبات النغم فيها مع نظائرها في آلة العود .

ثم ختم المقالة ، بذكر المعازف ، وهي الآلات التي تستعمل فيها الأوتار المطلقة ، بحال كل نغمة ، وبين كيف أن المزاويل لهذه الآلات أكثر إحساساً بالنغم من أولئك الذين يستعملون الآلات التي تؤخذ فيها النغم بقسمة أوتارها كالطنبور والعود ، وبين الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلك فيه لتسوية نغم الأوتار المطلقة ، والطريق الذي يوجد فيه بعض التسامح وهو ما يستعمله المزاويلون عادة لهذه الآلات ، وذكر أن الجنس المسمى « ذا المدين » ، يمكن أن يرتب نغمة أسهل في هذه الآلات ، عن الأجناس الأخرى التي تتفاضل فيها أبعادها الثلاثة حيث تكون هذه أكثر حاجة إلى التأمل من تلك التي يتساوى فيها بعدان .

ثم ختم هذه المقالة بقول مجمل في الآلات التي يمكن أن يتم بها الأمر العملي أو العلمي ، أو الأمرين جميعاً .

أما الفن الثالث ، فهو في تأليف الألحان الجزئية .

فالمقالة الأولى ، من هذا الفن ، في صناعة الألحان الحادثة عن النغم باطلاق . فأوضح أولاً جداول تشتمل على الأعداد العالة على ترتيب النغم في الأجناس جميعاً متى رتب كل منها في جمع تام منفصل .

ثم عدد الانتقالات ونغم المبادئ في الألحان ، وجعل للانتقالات جدولاً أوضح فيه أمثلة لجميع أصنافها .

ثم تكلم عن أزمنة الإيقاع من المبدأ ، وكيفية استخراج أصناف الأزمنة الأقل عن هذا المبدأ الأعظم ، وإنا نلمح في قوله هذا أن ما يستعمله المحدثون في وقتنا هذا إنما هو بعينه ما ذكره « الفارابي » في قوله عن الأزمنة الأقل وأنصافها وأضعافها وأمثالها .

وختم المقالة الأولى من هذا الفن بما يجب أن يتبع في تأليف الألحان التي تدخل في هذا الصنف ، وهو الألحان الحادثة عن النغم باطلاق .

والمقالة الثانية ، من هذا الفن ، فقد جعلها عن الصنف الثاني من الألحان وهو ما يحدث بالتصويتات الإنسانية .

تكلم أولاً عن الأعراض التي تلحق النغم الإنسانية وفصولها ، وما هو خاص بها دون سائر الحيوان والأجسام التي تعطى النغم ، وجعلها قسمين : فصول الأصوات بالكمية وفصولها بالكيفية .

فالتى هي بالكمية تختص بالحدة والثقل ، وفيها عدة هذه فهي فصول بالكيفية ، وبعض هذه تختص بالنغم الإنسانية وحدها ، وبعضها يعم جميع الأجسام ذوات النغم .

ثم أوضح عملية الحنجرة في الإنسان ، بسلوك الهواء في الحلق والقوة الرافقة لها ، وذكر التسميات التي تلحق كفيات النغم الإنسانية ، وبعض الانفعالات التي تضيف على الأصوات كفيات تختص بها .

ثم ذكر فصول الأصوات من الحروف العربية ،
وبين المصوتات منها وغير المصوت ، وبين امتزاج
المصوتات الممتدة الطويلة المرفوع منها والمخفض
والمتوسط بين هذين ، وعدد أصناف الأقاويل
الموزونة ، وأجزائها وبسيط الوزن منها والمركب
الوزن ، وتام الأجزاء منها وغير التام ، وأول مراتب
النظم في كل .

ثم تكلم عن كيفية عمل اللحن عن نغم مؤلفة ،
وكيف يقرن حروف الأقاويل بالنغم ، وكيف توزع
أجزاء الأقاويل ، وأوضح ما هي الألحان المملوءة النغم
والألحان الفارغة النغم ، وكيف صنعت كل منهما ،
وكيف صنعت لحن مخلوط منهما .

وقسم الألحان إلى قسمين شبيهاً بأقسام الأقاويل ،
فما هي مفصلة ومنها ما هي غير مفصلة ، وغير
المفصلة هي التي أسماها الألحان المسرودة ، ويعني بها
الألحان التي تجري على جنس إيقاع موزون ، وإنما
يمكن أن تؤخذ على إيقاع موصل كيفما اتفق .

ثم بين أصناف الألحان المفصلة وفصولها العظمى
والوسطى والصغرى ، واصطحاب الإيقاعات بهذه
الفصول وما يلحقها .

ثم تكلم عن مبادئ الألحان واستهلالاتها ونهاياتها ،
كما كان العرب يستعملونها ، ثم انتهى بعد ذلك إلى
الأمور التي بها تكمل الألحان فتصير أكثر بهاءً وأتقاً
في المسموع .

وختم هذه المقالة الأخيرة بالموضوعات التي تخص
هذه الصناعة من الأقاويل الشعرية وأصنافها ، وكيف
تستعمل من قبل أن صناعة الشعر هي رئيسة الهيئة
الموسيقية ، وما جدوى هذه الصناعة ومدخلها في
الإنسانية .

ونحن ، ننقل هنا الجزء الأخير من هذه المقالة كما
كتبه « الفارابي » ، قال :

« . . . ولما كانت الأفعال الإنسانية كلها ، إنما

يطلب بها السعادة القصوى ، وكان يلزم أن تكون
مليدة دائمة أبداً ، أو ملدة من غير أن يلحق الإنسان منها
أذى أو كلال أو تعب أصلاً ، وكانت بهذا الأمر أشبه
الأشياء بالراحة ، وأفعالها التي بها كمالها أشبه الأشياء
بالأفعال الكائنة في الراحة من أصناف اللعب ، ظن
الجمهور كذلك في الأشياء المتعبة أنها شقاوات ،
وبالراحة وبأصناف اللعب أنها سعادات ، إذ كانت
أفعالها تحاكي أو تشابه السعادة التي هي بالحقيقة شقاوة ،
وظن بها أيضاً أنها هي الغاية القصوى ، فنحوا بأفعالهم
كلها نحوها وطلبوا تميمها بكثرتها وتقويتها وبدوامها ،
وجازوا بها مقادير المراتب ، فصارت بحسب استعمالهم
لها أشياء باطلة لا جدوى لها في الإنسانية ، بل صارت
صادقة عن الأمور التي بها ينال السعادة بالحقيقة ،
إذ كانوا إنما يستعملونها على هذه الجهة .

ولذلك صاروا يطلبون من الأقاويل الشعرية
ما شأنها أن تستعمل في اللعب ، وكذلك من الألحان
التي يقرن بها ، فانهم إنما يطلبون منها ما كان شأنها أن
تزين أو تحاكي أو تعين على تنفيذ المقصود بهذا الصنف
من الأقاويل الشعرية فقط ، قال من له القوة على صناعة
الألحان إلى صناعة أمثال هذه وحدها ، فظن ، إذ لم
يعلم أن في أكثر الأمر من الألحان غير هذه ، أن
المقصود بها كلها هذا المقصود ، فكادت لذلك أن
ترذل وتحس عند من مقصده التخييل منهم ، وقاربت
أن تأتي كثير من الشرائع ناهية عنها .

ولما كان ما يستعمل من الألحان في زماننا هذا ،
وفي بلداننا هذه ، هي التي كادت أن ترذل عند أهل
الخير ، وكان ما يعتقد في جمالها إنما يعتقد على حالها
التي بها تستعمل عند الجمهور في زماننا هذا ، صار
تبييننا للمقصود الخاص بمجمل الألحان وكيف مدخلها
في الإنسانية يحتاج فيه إلى أقاويل كثيرة ، إذ كنا إنما
نبين آراء واعتقادات غريبة عنهم ، ومع ذلك فإن

كثيراً مما يتبين من أحوالها عن تلك الأقاويل ، سيجرى
للسبب الذى بيناه مجزى ما يقال قولاً فقط ، من غير
أن يطابق الموجود لدينا فى زماننا ، فيصير قبول كثير
من السامعين لما يتبين لهم من ذلك قبولاً أضعف ،
أو شبيهاً بقبول ما ليس له غناء .

ولذلك ، فلنقتصر من التنبيه على هذه الأشياء من
أمر الألحان على هذا المقدار فقط ، ومتى أثر الإنسان
الوقوف على حقيقة الأمر من ذلك فى غاية أفعال هذه
الهيئة وجدواها ، فينبغى أن يعلم أن أفعال هذه الصناعة
تابعة للأقاويل الشعرية ، كما قلنا مراراً ، وكما قد بيناه
نحن فى مواضع آخر .

ومتى تبين ، ما منافع الأقاويل الشعرية فى الأمور
الإنسانية ، وعلى كم جهة هى ، تبين حينئذ منافع
أفعال هذه الصناعة وظهرت جهاتها ، ويحتاج فى علم
ذلك إلى معرفة أصناف الأقاويل الشعرية ، ومن أى
شئ تلتم ، وكيف صنعتها ، ثم إلى معرفة غناء صنف
صنف منها فى الأمور الإنسانية ، وهذه ليس يمكن أن
يوقف عليها من هذه الصناعة ، بل من صناعات
آخر

هذا ما يقوله « الفارابى » ، فى أمر الألحان وغاياتها
وجدواها فى الإنسانية ، وبه نختم نحن مقالنا عن هذا
الفيلسوف الحكيم العالم .

